مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

إشكاليت البديل الحداثي في المرايا المحدبت لعبد العزيز حمودة

The problematic of the modern alternative in the convex mirrors of Abdel-Aziz Hamouda

الطالب. عبد الحكيم غضبان
Abdelhakimghadbane@gmail.com
أ. د آمال لواتي
جامعت الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميت- قسنطينت

تاريخ الإرسال:29–01–2020 **تاريخ القبول:22–04–2021**

الملخـــص:

لقد أثار كتاب المرايا المحدبة ضجة كبيرة في النقد العربي المعاصر حول الموقف النقدي الذي اتخذه عبد العزيز حمودة من الحداثة في الأدب والنقد، إذ كان هذا الكتاب مرآة نقدية عاكسة لتضخم المشاريع والاستراتيجيات التي أنتجها فكر الحداثة الغربية (البنيوية والتفكيك)، الإشكال الذي دفع عبد العزيز حمودة إلى البحث عن بديل يرتضيه في النقل والاستعارة من الثقافة الغربية، تأكيدا على رفضه للركام المعرفي والنقدي للحداثة العربية.

الكلمات المفتاحية: عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، الحداثة، الحداثة العربية، الحداثة الغربية.

Abstract:

Book a big fuss convex mirrors have raised criticism in the Arab contemporary about the monetary stance taken by Abdul Aziz Hammouda of modernity in literature and criticism, as this

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

book was critical mirror reflective of inflation projects and strategies produced by the thought of Western modernity (structural and disassembly). The confusion that prompted Abdul Aziz Hammouda to the search for an alternative acceptable in the transport and metaphor of Western culture, emphasis on the rejection of the monetary aggregates and the knowledge of Arab modernism.

Keywords: Abdul Aziz Hamouda, Convex Mirrors, Modernity, Arab Modernity, Western Modernity.

المقدمـــة:

يشهد النقد العربي المعاصر مرحلة فريدة في تاريخه من حيث تعدد المناهج والتيارات ومسار التحولات التي نتجت عن الانفتاح على الآخر وثقافته وتطلعاته إلى حد التطبيع الفكري والتقليد للمنتج الغربي، وذلك باستدعاء ونقل وتبني مفاهيم وتيارات غربية من أجل النهوض بالفكر والنقد العربيين، وهذا ما انعكس سلبا في الخطابات الحداثية العربية، ولعل هذا التوجه والتبني المفاجئ للثقافة الغربية أحدث إشكالا كبيرا دفع بنخبة من النقاد والباحثين في الوطن العربي مغربا ومشرقا إلى إعادة قراءة وتقويم هذه الخطابات (نقد النقد) ومحاولة إيجاد بديل حداثي عربي ترتضيه، ومن هؤلاء النقاد نجد الناقد المصري عبد العزيز حمودة الذي ساهم في إثراء الساحة النقدية في مجال نقد النقد بآرائه القيمة المبثوثة في كتبه الثلاث، وفي مقدمتها كتابه المرايا المحدبة.

1– البعد النقدي لعنوان المرايا المحدبة:

يمثل العنوان العتبة الأولى التي تواجه القارئ والناقد معا، فهو الأثر الذي يعرف به الشيء، فعن طريق العنوان تتجلى جوانب أساسية أو مجموعة من الدلالات المركزية

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

للنص الأدبي[1]، إلا أن ضبط العنوان يمثل مرحلة صعبة يمر بها المؤلف، وهذا ما نجده عند عبد العزيز حمودة من خلال كتابه المرايا المحدبة حيث يقول: «ظللت أربع سنوات كاملة، هي المدة التي استغرقَتها القراءة المتعمقة وفي حالة تفرغ شبه كامل للمادة العلمية، أحاول أن أجد عنوانا مناسبا للكتاب، وبدأت عملية كتابة المسودة الأولى دون أن أستقر على عنوان مناسب، فجأة في مرحلة ما من الكتابة فرضت فكرة المرايا المحدبة والصورة التي تعكسها نفسها عليّ فرضًا، وحينما حدث ذلك لم أستطع الهروب من الفكرة كعنوان مناسب للكتاب»، ويضيف قائلا: «...أني كلّما قطعت شوطا جديدا من رحلة الكتابة التي استغرقت بضعة أشهر تأكّدتُ أن صورة المرايا المحدبة هي الفكرة المحور للدراسة، إنها في الواقع القضية الأساسية التي حاولت تقديمها في الدراسة الحالية»[2].

وهنا يحق للقارئ أو الناقد أن يتساءل، لماذا المرايا المحدبة؟ وليست مجرد المرايا أو حتى المرايا المقعرة أو المتوازية؟ وماذا يقصد عبد العزيز بهذا العنوان؟ ماذا يمثل بالنسبة لمحتوى الكتاب؟ كل هذا نحاول أن نجيب عليه من خلال وقوفنا على دلالات هذا العنوان.

ومعلوم أن هناك أربعة أنواع وأشكال معروفة من المرايا: هناك المرآة العادية حينما تكون مفردة تعكس كل ما يوجد أمامها في صدق وأمانة ودون تزييف أو تشويه أو مبالغة، أي تنقل الصفات بشكل حقيقي، ونجد أيضا المرآتان المتوازيتان، حيث تقوم هذه الأخيرة بنقل صور لا نهائية لكل ما يقع بينهما في متاهٍ ووهم، وهناك المرايا المقعرة

[1]– ينظر: جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 25، ع 03، مارس 1997م، ص98.

[2]– عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م، ص: 07.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

التي تقوم بتصغير الأشياء بشكل مخل يُشوّه حقيقتها، لكن المرايا المحدبة تقوم بتكبير كل ما يوجد أمامها وتزييفه حسب زاوية انعكاسه فوق سطح المرآة.[1]

والمرآة في تعريفها العام هي أداة لها القابلية على عكس الأشياء بطريقة تحافظ على الكثير من صفاتها الأصلية قبل ملامسة سطح المرآة، وقد تقوم المرآة بتضخيم الأشياء، لكنها وبصرف النظر عن زاوية الانعكاس تبالغ في حقيقة الأشياء وتزييف أحجامها الطبيعية، وهذا ما نجده في المرايا المحدبة، وهو ما يؤكده عبد العزيز حمودة في قوله: «وقد وجدت نفسي غير قادر على الهروب من صورة المرايا المحدبة، وقد وقف أمامها الحداثيون جميعا ودون استثناء، الأصليون منهم والناقلون، لفترة كانت كافية لإقناعهم بأن صورهم في المرايا المحدبة هي حقائقهم، وذلك على وجه التحديد موضوع الدراسة، أو الفكرة الغالبة كما يقول الحداثيون أنفسهم».[2]

كما يُعَدُّ كتاب المرايا المحدبة من أهم المصنفات النقدية العربية التي أثارت ضجّة في عالم النقد، لما أثاره من قضايا نقدية شملت أنموذجين حضاريين مختلفين بين العرب والغرب. فالمرايا المحدبة كتاب نقدي صدر سنة 1998م، تتكون مجمل صفحاته من 430 صفحة– تختلف عدد صفحاته من طبعة إلى أخرى– جاء محتواه في ثلاثة فصول مع تمهيد عنونه حمودة بـــ: ((المرايا المحدبة)) حاول أن يسقط دلالة العنوان على محتوى الكتاب، وقائمة المصادر والمراجع، وقد عنون حمودة فصول كتابه كالتالي: الفصل الأول جاء بعنوان: الحداثة، النسخة العربية؛ حاول فيه حمودة أن يقف على أهم خرجات الحداثيين العرب المتمثلة في تبنيهم للحداثة الغربية، وقد قسم هذا الفصل إلى قسمين: تناول فيه أولا: الحداثة، النسخة العربية، وثانيا النص بين موت المؤلف ومولد الميتانقد. أما الفصل

[1] – المصدر نفسه، ص: 8.

[2] – المصدر نفسه، ص: 8.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الثاني فحمل عنوان: الحداثة، النسخة الأصلية، تطرق فيه حمودة إلى بدايات الحداثة الأصلية وجذورها الفلسفية والتحولات المعرفية، كما تناول إفرازاتها النقدية والمتمثلة في النظريات والمناهج النقدية الحداثية التي انبثقت في بداية القرن العشرين، ليأتي الفصل الثالث معنون بالبنيوية وسجن اللغة؛ تطرق فيه حمودة إلى بدايات البنيوية، وأهم مناطق الفراغ والصمت، وفي الأخير قدم نقدا لها، أما الفصل الأخير: التفكيك والرقص على الأجناب، فقد وقف فيه عبد العزيز على التفكيك من جوانبه الأربعة؛ ابتدأها بالتفكيك وفوضى النقد، ثم جذوره فأركانه، لينتهي بالنقد الموجه إليه.

فكتاب المرايا المحدبة* يندرج ضمن دائرة نقد النقد، حاول فيه عبد العزيز حمودة أن يقف على أهم المسارات التي مرّ بها النقد الأدبي العربي، وأهم السقطات التي وقع فيها النقاد المعاصرون جراء تبنيهم لمناهج الحداثة الغربية (متمثلة في البنيوية والتفكيكية) وانبهارهم بها ومحاولة إسقاطها على الأدب العربي، لدرجة أنّها أصبحت لازمة من لوازم الأدب، وهذا ما أكدّه حمودة في قوله: «نعود مرة أخرى إلى الصورة داخل المرآة المحدّبة، وقد ضخّمت حقيقة الواقف أمامها وبالغت في حجمه، ثم وهو الأدهى أنّه صدق صورته في المرآة مع مرور الوقت»[1] ، ما نتج عنه ما يسمى بأزمة النقد العربي المعاصر.

فالمرايا المحدّبة قصد بها صاحبها الحداثة المنحنية أو العرجاء، أو المزيّفة والمشتّتة، أو الحداثة المشوّهة، ومن هنا يمكننا القول إن هذا العنوان اختاره عبد العزيز حمودة وتبنّاه عن قناعة، محاولة منه لتصحيح مسار النقد الأدبي العربي المعاصر، فهذا الكتاب هو نقد

* وهي الجزء الأول من مشروعه النقدي صدر سنة 1998م، ويمثل كتاب «المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية» الجزء الثاني صدر سنة 2001م، وآخر كتاب هو «الخروج من التيه– دراسة في سلطة النص» صدر سنة 2003م، هذه هي كتب عبد العزيز حمودة الثلاثة التي حوت مشروعه النقدي .

[1]– المريا المحدبة، ص: 9.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

لتيار الحداثة العربية، أو قل نقد النقد، الذي اعتمد نقل وترجمة النظريات الغربية وطبقها على الأدب العربي بتعسّف، فما «يقدمه أدباء الحداثة في العالم العربي... ليس إلا نقولا مترجمة من أفكار ومناهج الغربيين إلى اللغة العربية بأقلام هذه الوسائط الفكرية والأدبية، التي أقل ما توصف به أنها أقلام عربية الحرف أجنبية الفكر والانتماء».[1]

فمن هنا نلحظ أن عبد العزيز حمودة بكتابه هذا (المرايا المحدبة) يريد أن يؤسس لحداثة عربية خالية من الأفكار الغربية وهذا ما أكّده في قوله: «نحن فعلا بحاجة إلى حداثة حقيقة تهزّ الجمود وتدمر التخلف وتحقق الاستنارة، لكنها يجب أن تكون حداثتنا نحن، وليست نسخة شائهة عن الحداثة الغربية».[2]

نستنتج مما سبق أن الاتجاه الفكري والنقدي لعبد العزيز حمودة عكس من بداية كتابه موقفه من الحداثيين العرب وإثبات فشلهم في إقامة مشروع نقدي حداثي يُعول عليه في تحقيق نهضة نقدية عربية.

2– تعريب/ ترجمة مصطلح الحداثة في الفكر العربي:

قبل الخوض في الحديث عن الحداثة العربية لا بأس أن نعرج على دلالة الحداثة في المعاجم العربية فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: الحَدِيثُ نَقِيضُ القَدِيم. والحُدُوثُ نَقِيضُ القُدْمَة. حَدَثَ الشَيْءُ يَحدُثُ حُدُوثًا وحَدَاثَةً، وأَحْدَثَهُ هُوَ، فَهُوَ مُحدَث وَحَدِيْثٌ، وكَذلِكَ اسْتَحْدَثَهُ. وقد استخدَمَ العربُ حَدَثَ مقابل قَدُمَ، وهو ما يَعني أنَّ الحداثة تعني الجِدّة، والحدِيثُ يَعني الجَدِيد، أما المعنى الآخر الذي تدل عليه كلمة الحَداثة فهو أوَّلُ الأَمْرِ وبدايتهُ، «حِدثَانُ الشَّيْءِ، بالْكَسْرِ أوَّلَهُ، وَهُوَ مَصْدَرْ حَدَثَ يَحْدُثُ

[1]– لطفي فكري محمد الجودي، نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ط1، 2011م، ص: 114.

[2]– المرايا المحدبة، ص: 11.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

حُدُوثًا وحِدْثَانًا»، كَمَا اسْتُخْدِمَ هذا المعَنَى بكثرة كِنايةً عن مَرحَلَة الشَّبَاب وأوَّل العُمْر، ويقال عن فلان أنَّه فعل كذا في حداثة سنّه أي في مَرْحَلَة شَبَابِهِ، وتقول العَرب رِجَالٌ أَحْدَاثُ السِّنِ وحُدْثَانُ السِّنِ وحِدْثَانُ السِّنِ وحُدَثَاءُ السِّنِ، والحُدثَانُ جمع حَدَثٍ والحَدَثُ هو الفَتِّي السِّنِّ، والحَدَثُ أيضًا من أَحدَاثِ الدَّهْرِ شِبه النَّازِلَة. أما الحَدِيْثُ فهو الخَبَرُ، واسْتَحْدَثَ الرَّجُلُ خَبَرًا أي؛ وَجَدَ خَبَرًا جَدِيْدًا، ونقول رجلٌ حَدِثَ وحَدُثَ وحِدِّيثْ ومُحَدِّث، بمعنى واحد مشترك وهو كثير الحَدِيث حَسُنَ السِّيَاق له، وحَدَثَ الأَمْرُ بمعنى وَقَعَ، ومُحْدَثَاتُ الأُمُور ما ابتَدَعَهُ النَّاسُ من أُمُور لَمْ يَعرفَهَا الأَسْلاَف، والحُدُوثُ: كَوْنُ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ وأَحْدَثَهُ الله فَحَدَثَ. وحَدَثَ أَمرٌ أَيْ وَقَعَ، ومُحْدَثَاتُ الأُمُورِ: مَا ابْتَدَعَهُ أَهْلُ الأَهْوَاءِ مِنْ الأَشْيَاءِ التَّي كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلى غيْرِهَا[1].

وجاء في قاموس المحيط للفيروز آبادي أن لفظة الحداثة لها معنى آخر، ونعني بها الأَمْطَار أَوَلُ السَّنَة، بمعنى الأَمْطَار الحَادِثَة التِي تنزل في أَوَلِ السَّنَة بعد طُولِ انقِطَاع، فهي أَوَل الغَيْثِ[2].

كما يجب أن نعرج أيضا على أهم المصطلحات المتداولة في فكر الحداثة لإزالة بعض الغموض والالتباس في استعمالاتها العربية وهي: (Moderne - Modern) و(Modernism - Modernisme) و(Modernisation– Modernization).

ما يمكن ملاحظته أن هناك شبه إجماع على أن كلمة (حديث) هي الترجمة العربية لمصطلح (Moderne - Modern)، ومن الصعب جدا تحديد الفترة الزمنية التي

[1]– ينظر: ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1955، ص: 131، 132. مادة [ح د ث].

[2]– الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الجزء الأول، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت– لبنان، 1997م، ص: 267.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

ظهرت فيها كلمة (حديث)، لكن أغلب التوجهات تشير إلى أن بداية تداولها كانت في القرن السادس عشر للميلاد في اللغتين الإنجليزية والفرنسية –وهناك من يشير إلى القرن الرابع عشر للميلاد– والكلمة «مستقاة من ظرف الزمان اللاتيني (Modo) بمعنى «توّا».[1]

في بداية هذا المصطلح كان الغرض منه، التمييز بين فترتين زمنيتين، وفي نفس الوقت، حيث كان «للتعبير عن الاعتراض على ما هو قديم والذي كان يميز العصور اليونانية والرومانية القديمة»[2]، لكن مع مرور الزمن بدأ يكتسب معاني جديدة، منها نظرة بعض التيارات الغربية إلى المجتمعات غير الأوربية بأنها غير حديثة، وهذا ما جعل الكثير يربط كلمة حديث بالغرب؛ بمعنى أن كل غربي حديث وكل غير غربي غير ذلك، وهذا منطق استعلائي عنصري، واستهانة بالحضارات غير الأوربية، أيضا من معانيه الخطيرة معاداته لكل هيمنة إيديولوجية أو قومية، وهذا ما يقره ألان تورين، حين يقول: «من المستحيل أن نطلق كلمة –حديث– على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل طبقا لوحي إلهي أو جوهر قومي».[3]

أما في عصرنا الحالي –القرن العشرين– فقد فقدت كلمة (حديث) كل الدلالات

[1]– طوني بينيت، ولورانس غروسبيرغ، وميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة – معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت– لبنان، ط1، 2010، ص: 176.

[2]– محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة – نموذج هبرماس، إفريقيا الشعب، الدار البيضاء– المغرب، ط2، 1998م، ص: 108.

[3]– ألان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، المجاس الأعلى للثقافة، القاهرة– مصر، د.ط، 1997م، ص: 29.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

التي كانت تحملها من قبل إذ «في أواخر القرن العشرين فقد (الحديث) إلى حد كبير معانيه الإيحائية بصدمة المستقبل والقطيعة التاريخية، وأصبح في الاستعمال مجرد مصطلح يدل على تقليد أسلوبي ثابت بأصوله في الماضي».[1]

كما نجد ترجمة أخرى لمعنى حديث/حداثة، وهي: (modernism - modernism) و(modernité - modernity)، من الصعب التفريق بين هاتين الترجمتين لاختلاف ترجمتهما وتواردهما عند النقاد العرب، فمنهم من يصطلح كلمة حداثة على اللفظ اللاتيني (modernité)، ومنهم من يترجم مصطلح (modernism) إلى نزعة الحداثة، النزعة الحداثية، حركة الحداثة، الحداثوية، العصرية، الحداثية، الحدثانية، التجديد... إلخ.

أما المفكر الفلسطيني هشام شرابي فيحدد العلاقة بين الحداثة/modernité وmodernisme والذي ترجمه إلى (النزعة الحداثية)، ويرى أنها تعني الوعي بالحداثة وتنادي بالأفكار التي تسعى إلى تغيير الذات الإنسانية والعالم بأسره.[2]

وهناك أيضا ترجمة اقترنت بالفكر الحداثي هي: (modernization – modernisation) ما يقابلها في الترجمة العربية كلمة (تحديث)، ارتبط هذا المصطلح بالجانب المادي وبالحياة اليومية للإنسان، ومع ذلك نجده أيضا يمس الجانب الفكري والذهني له، إذ إن التحديث هو عملية استخدام التكنولوجيا والاختراعات الحديثة في الحياة الاجتماعية.

وهناك ترجمة شاذة لهذا المصطلح أوردها المعجم الفلسفي الذي أصدره معجم

[1] ــ طوني بنيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة، ص: 282.

[2] ــ ينظر: عزّ الدين الخطابي: أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م، ص: 17.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

اللغة العربية في مصر حيث ترجم (modernism) إلى كلمة (تجديد)، وعرف «المصطلح بأنه نزعة تأخذ بأساليب جديدة في نواحي الحياة الفكرية والعملية، ومنه التجديد المتطرف».[1]

ويذهب عالم الاجتماع الفرنسي ألان تورين إلى إنشاء علاقة إيديولوجية بين (modernité) و(modernisme) فيقول: «الأيديولوجية الغربية للحداثة (modernité) والتي يمكن أن نسميها بالحداثية (modernism) قد ألغت فكرة الذات وفكرة الله المرتبطة بها وبنفس الطريقة استبدلت تشريح الجثث أو دراسة نقاط التلاحم العصبي في المخ بالتأملات حول النفس».[2]

ويرى سامي خشبة أن هناك وجهتين متباينتين للتحديث «فالغربيون يقصدون بالتحديث قيام المجتمعات غير الغربية باقتباس ما أنتجه المجتمع الصناعي الغربي منذ القرن التاسع عشر أو ما قبله، أما المفكرون الأسيويون والإفريقيون فقصدوا به التغريب، من غربة المجتمع غير الغربي عن أصوله الثقافية، ومن الاصطباغ بالصبغة الغربية أيضا».[3]

وأخيرا نصل إلى الترجمتين اللتين راجتا في الفكر النقدي، وتُعَدّ كلمة الحداثة الترجمة العربية الأكثر انتشارا في الساحة النقدية العربية وهي: (modernity_modernism)، وهناك من النقاد من ترجمه إلى "المعاصرة" أو "العصرية"، وهي ترجمات قليلة، يجمع أغلب دارسي الحداثة والمهتمين بهذا الجانب أن

[1] _ مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة –مصر، د.ط، 1983م، مادة تجديد

[2] _ ألان تورين: نقد الحداثة، ص: 32.

[3] _ سامي خشبة: مصطلحات فكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة– مصر، د.ط، 1997م، ص: 61.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الكلمة (modernity) ظهرت لأول مرة في القرن التاسع عشر، وهناك مصادر تذكر أن أول من استعملها هو الفرنسي بلزاك سنة 1823م، وهناك آراء أخرى تقول بأن أول من استخدم هذا المصطلح وأول من استعمل كلمة الحداثة (la modernity) هو الكاتب الفرنسي فرانسوا شاتوبريان عام 1849م[1]، كما نجد إجماع الكثير من النقاد العرب أن الشاعر الفرنس شارل بودلير هو أول من صاغ مفهوما للحداثة، ولعل بودلير حسب ما تتناقله جل الدراسات كان سبّاقا في بلورة مفهوم نظري لمصطلح الحداثة.[2]

قد أحدث منذ البداية تعريب مصطلحي (modernity_modernism) إرباكا لدى القارئ العربي، إذ يبدوان مصطلحا واحدا، فتم تعريبهما بكلمة واحدة «الحداثة»، وميز آخرون بين (الحداثة Modernity) و(الحداثة Modernism)؛ لأن المصطلح الأول لا يتقيد باشتراطات مذهبية أو مفهومية في أدب أمة معينة، أما الثاني فإنه يدل على حركة أدبية ونقدية معينة لها سياقاتها التاريخية والمعرفية والفنية في الأدب الغربي.[3]

ما نلاحظه أن ترجمة مصطلح الحداثة في نسخته العربية هو امتداد للحداثة الغربية، وأنها مستورد من مستورداتها، أخذت منها تقريبا كل شيء حتى صارت نسخة منها. فمصطلح الحداثة في نسخته العربية لم يدخل إلى حيز التداول في الفكر العربي إلا بتأثير من الحداثة الغربية.

[1]– ينظر: عبد الرحمن عبد الحميد علي، النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد، دار الكتاب الحديث القاهرة – مصر، د.ط، 2005م، ص: 95.

[2]– ينظر: خيرة حمر العين، جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق– سوريا، د.ط، 1996م، ص: 31.

[3]– ينظر: لطفي فكري محمد الجودي، نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ط1، 2011 م، ص: 52.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

3– تحديدات غربية لحداثة عربية:

بدأ عبد العزيز حمودة كلامه عن الحداثة في نسختها العربية بذكر الشعور الذي كان ينتابه عند قراءته للحداثيين العرب، حيث كان يحس بالانبهار والعجز أمامهم، إذ يقول: «وقفت طويلا منذ السنوات الأولى، منذ الثمانينات على وجه التحديد، أمام كتابات البنيويين العرب، أو الحداثيين العرب، بإحساس ظل حتى وقت قريب مزيجا من الانبهار والشعور بالعجز، الانبهار لأن مجموعة من الأكاديميين العرب استطاعوا في فترة الانكسار التي تلت هزيمة الإنسان العربي عام 1967م أن ينقذوا شرف النقد العربي على حد قول الراحل لويس عوض في أحد اللقاءات الفكرية في أواخر الثمانينات، وهذه حقيقة لا مراء فيها».[1]

كما نجده يُشيد بالدور الذي لعبته مجلة (فصول) في احتواء إبداعات النقاد العرب ونشرها، وكانت هذه المجلة «أبرز منابر النشاط النقدي الجديد... فتحت أبوابها أمام المفكرين المصريين والعرب فقدموا الدراسات الجادة والترجمات المتميزة عن البنيوية، لكن ذلك الانبهار، خالطه طوال الوقت شعور عميق –لم أفصح عنه حتى اليوم– بالعجز عن التعامل مع هذه الدراسات البنيوية وفهم أهدافها، بل فهم وظيفة النقد ذاته في ظل المصطلحات النقدية المترجمة والمنحوتة والمحرَّفة التي أغرقونا فيها لسنوات».[2]

إن عبد العزيز حمودة على وعي تام بأن من الضرورة العلمية والمنطقية والواقعية أن ينطلق النقاد أو النقد العربي المعاصر من رؤية فلسفية ومعرفية تنتمي للأنساق الفكرية الكبرى لتراثه وحضارته الكبرى، التي ينتمي إليها وتشكل واقعه العربي، وأن ينطلق من هذا الواقع العربي المعاصر، لذلك فهو يأخذ على الناقد الحداثي العربي افتقاره إلى فلسفة

[1] – المرايا المحدبة، ص13.

[2] – المصدر السابق، ص: 13.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

خاصة به عن الحياة والوجود والذات والمعرفة، فهو يستعير المفاهيم النهائية لدى الآخرين، ويقتبس من المدارس الفكرية الغربية، ويحاول في جهد توفيقي بالدرجة الأولى تقديم نسخة عربية خاصة به، إنها كلها عمليات اقتباس ونقل وترقيع وتوفيق لا ترتبط بواقع ثقافي أصيل، ومن هنا تجيء الصورة النهائية مليئة بالثقوب والتناقضات.[1]

لَقَدْ انْبَهَرَتْ الحداثة العربية بالعقل الغربي، بل ووصل الأمر بدعاتها لاحتقار العقل العربي والعبث به والتعالي عليه، فدعوا إلى القطيعة المعرفية مع الماضي، وتعمدوا الغموض والمراوغة والإبهام؛ مما عجل بإفراز الثورة أو التمرد الحداثي العربي من مضمونه بعد أن حولتنا الحداثة الغربية كما يقول عبد العزيز حمودة إلى قطع من الشطرنج تحركها مصالح الإمبريالية الجديدة، تحت عباءة الكونية والعولمة، وإلى راقصين يتواثبون في فوضى مع أنغام عازف دفعت أجره مبكرا ومقدما المخابرات الأجنبية، الغربية والشرقية على السواء.[2]

كما وقف صاحب (المرايا المحدبة) على أهم تنظيرات وترجمات النقاد العرب للحداثة في بدايتها، أمثال جابر عصفور وكمال أبو ديب وهدى وصفي وحكمت الخطيب وعز الدين إسماعيل وعلي أحمد سعيد (أدونيس)، وزوجته خالدة سعيد، ويوسف الخال، وصلاح فضل، وغالي شكري، وصلاح عبد الصبور، وعبد الله العروي، وعبد الوهاب البياتي، وعبد العزيز المقالح، وحسين مروة، ومحمود درويش وسميح القاسم، وسعيد السريحي... وآخرون يضيق المقام بذكرهم ممن لا عد لهم ولا حصر،

[1] – ينظر: لطفي فكري محمد الجودي: نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، ص: 116.

[2] – عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة –نحو نظرية عربية نقدية، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001م، ص: 98.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

وممن ركبوا موجة البنيوية والتفكيكية وحاولوا تأسيس حداثة عربية كما، لكن السؤال الذي واجهه عبد العزيز حمودة في كتابه وأراد الإجابة النقدية عنه هو: هل هناك حداثة عربية؟ وإذا وجدت هل أصولها عربية؟ أم لدينا نسخة عربية للحداثة الغربية؟

وذلك لأن الحداثيين العرب حاولوا في بداية السبعينيات مباشرة أي في السنوات التي تلت النكسة وسقوط الحلم العربي تقديم نسخة عربية لحداثة تتعامل مع واقع الحضارة الغربية، وذلك بعد جهود مجلة (فصول) ومحاولة المفكرين والمترجمين اللبنانيين لفت الأنظار للحداثة؛ حيث يعتبرها إلياس خوري حداثة نهضوية ترتبط بواقع ثقافي عربي له خصوصياته التاريخية المتمثلة في فقدان الماضي الثقافي لشرعيته، وتأسيس شرعية للمستقبل العربي، يقول: «لم تطرح الحداثة في الثقافة العربية المعاصرة إلا ضمن إشكالية خاصة بها، فهي لم تكن صورة عن الحداثة الغربية، بل كانت محاولة عربية لصياغة الحداثة داخل مبنى ثقافي له خصوصياته التاريخية ويعيش مشكلات نهضته، فجاءت الحداثة العربية حداثة نهضوية، إنها التكسر الثقافي والاجتماعي والسياسي... الحداثة العربية هي محاولة بحث عن شرعية المستقبل بعد أن فقد الماضي شرعيته».[1]

فالحداثة العربية إذن هي رفض للواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي العربي، ونظرة إلى الأمام إلى مستقبل نستطيع فيه إيقاف الإبادة القادمة وإثبات وجودنا الثقافي.

كما نجد شكري عياد يُرجع الحداثة العربية إلى سقوط الحلم العربي، ورفض الواقع الذي يعجز المثقف عن التعامل معه، «لم يكن ثمة ما يعوق انتشار الحداثة كمذهب فني محض... إلى جميع أقطار العالم العربي... وهكذا أصبحت الحداثة عقيدة فنية لدى النخبة المثقفة وشباب الفن في مشرق العالم العربي ومغربه، وقد تختلف صفات

[1] – إلياس خوري: الذاكرة المفقودة دراسات نقدية، دار الآداب، بيروت– لبنان، ط2، 1990م، ص: 25 .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

هذه النخبة في بلد عربي آخر، ولكنها تشترك في شيء واحد على الأقل، وأنها تشعر شعورا حادا بسقوط الحلم العربي، وعجزها المطلق عن الحركة الفاعلة، هذه الحالة من الإحباط تدفعها إلى البحث عن الخلاف في الفن... وهكذا أصبحت الحداثة مخرجا مناسبا من حالة الضياع التي سقط فيها جيل الثورة والأجيال التالية».[1]

ويؤكد عبد العزيز حمودة أن الحداثة العربية في جانبها الإيديولوجي تشترك بشقيها العربي والغربي في هدف واحد، مفاده الثورة على التراث والقضاء على الفكر التقليدي، يقول: «إن الحداثة بمعناها العربي والغربي على السواء تتجه إلى تدمير عمد النظام القديم»، وهو ما يؤكده محمد عابد الجابري الذي كثيرا ما يربط الإبداع بالتمرد والثورة على السائد والسابق من الأفكار والمبادئ... فمن أقواله: «إن الحداثة في جوهرها ثورة على التراث القديم، تراث الماضي والحاضر من أجل خلق تراث جديد، الحداثة اليوم في العلم كما في الأدب والفلسفة والمناهج والاجتماع... لا وطن لها، أو على الأقل لم تعد محصورة ولا قابلة للحصر في رقعة من الأرض دون الأخرى... إنّ الحداثة تبدأ باحتواء التراث وامتلاكه؛ لأن ذلك وحده هو السبيل إلى تدشين سلسلة من القطائع معه، إلى تحقيق تجاوز عميق له إلى تراث جديد نصنعه، تراث جديد فعلا».[2]

أما عند أدونيس فباتت هذه الدعوة أكثر وضوحا، فهو أبرز من تكلم عن الحداثة، إذ هي هاجسه الأكبر في الإبداع والتنظير، فمفهوم الحداثة عنده يتأسس في ضوء المغايرة والاختلاف، والمعاصرة والتجديد، وكأن كل ما هو موروث أو ماضٍ

[1]– شكري محمد عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 1993م، ص: 71.

[2]– لطفي فكري محمد الجودي: نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، ص: 113.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

رِجْسٌ ينبغي أن يُنبذ ويُتَحلّل منه، يقول في معرض حديثه عن طموح الحداثيين في العالم العربي: «الشعر الذي يمكن أن نسميه أصيلا... هو الشعر الذي يبحث عن نظام آخر غير النظام الشعري القديم؛ أي هو الذي يصدر عن إرادة تغيير النظام القديم للحياة العربية... إنه الشعر الذي يُغَيِّر أولا طريقة استخدام أدواته لكي يستطيع أن يغير طريقة التذوق وطريقة الفهم، ولكي يتغير–تبعا لذلك– دور الشعر ومعناه، عما كان عليه في النظام القديم للحياة العربية».[1]

وعرّف الحداثة فقال: «الحداثة رؤيا جديدة، وهي جوهريًا رؤيا تساؤل واحتجاج؛ تساؤل حول الممكن واحتجاج على السائد، فلحظة هي لحظة التوتر؛ أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها»، ونجده في موضع آخر أوجز كلاما عن الحداثة الفنية فقال: «تعني الحداثة –فنيّا– تساؤلا يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق جديدة في الممارسة الكتابية، وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل، وشرط هذا كلّه الصدور عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون».[2]

فالتغير والثورة على القديم بات ضروريا للخروج من المحنة التي يعاني منها النقد العربي، إذ نجد أحد النقاد يدعو إلى القطيعة مع المرجعية العربية فيقول: «الحداثة رفض ولهب أسئلة، كل حداثة تأسيس على الحطام وصمت الخرائب، ولكي تكون حداثة لا بد من فتح النوافذ والبوابات لرياح الهدم؛ فالحداثة إبداع، ولا إبداع بغير تكسير

[1]– أدونيس: الثابت والمتحول– الجزء4: صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، دار العودة، بيروت– لبنان، ط4،1993م، ص: 146.

[2]– أدونيس: فاتحة لنهايات القرن بيانات من ثقافة عربية جديدة، دار العودة للنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط2، 2010م، ص: 321.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الأوثان، إنه من يبدع يهدم دائما».[1]

وذهب إلى الرأي ذاته يوسف الخال عندما عرّف الحداثة الشعرية بأنها تعني التجاوز والخروج عن المألوف، قال: «إن الحداثة الشعرية هي إبداع وخروج عن المألوف، وهذا يعني أن شيئا جديدا قد طرأ في نظرتنا للأشياء، فانعكس أثر ذلك في لغة غير مألوفة، وتفترض الحداثة انبثاق شخصية شعرية ذات تجربة جديدة، تشكل ذاتها في الشكل والمضمون. إنها بالدرجة الأولى موقف من الحياة في رؤيا جديدة».[2]

ومن أشهر من قرر المنهج الحداثي ودعا إليه ودافع عن مقوماته العامة، الماركسي اللبناني الدكتور حسين مروة، الذي قرر في أحد أقواله ما يفيد بأن الإسلام ثورة حداثية إذ؛ تمرد على واقعه الفكري والسياسي، ومن ثم انتهى دوره بانتهاء عصره.[3]

وهناك من النقاد من يرجع أصل الحداثة إلى الغرب وينفي وجود التحديث في الوطن العربي، يقول الناقد محمد بردة في هذا الصدد: «الحداثة مفهوم مرتبط أساسا بالحضارة الغربية وبسياقاتها التاريخية وما أفرزته تجاربها في مجالات مختلفة، إن الحديث عن حداثة عربية مشروطة تاريخية بوجود سابق للحداثة الغربية، وبامتداد قنوات للتواصل بين الثقافتين».[4]

---

[1]– جمال شحيد/ وليد قصاب: خطاب الحداثة في الأدب– الأصول والمرجعية، دار الفكر، دمشق– سوريا، ط1، 2005م، ص: 110.

[2]– يوسف الخال: الحداثة في الشعر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط1، 1978م، ص: 15، 16.

[3]– ينظر: لطفي فكري محمد الجودي، نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، ص: 113.

[4]– جمال شحيد/ وليد قصاب: خطاب الحداثة في الأدب، ص: 105.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

من خلال هذه الآراء التي سبق عرضها نستنتج أن الحداثة العربية ما هي إلّا امتداد للحداثة الغربية، وذلك نتيجة للانبهار بالألوان الزاهية التي يقدمها المنجز الغربي، حيث جعلت الناقد العربي يقبل عليها بلهفة دون وعي، وهذا ما أوقعه في شَرك التبعية لغيره، إضافة إلى التقليد والمحاكاة التي مارسها على الثقافة العربية، ليبقى مشروع تأسيس حداثة عربية مؤجلا إلى حين...

4– هوية الحداثي العربي:

يشير حمودة إلى قضية جد مهمة وهي هوية الحداثي العربي؛ حيث يتأرجح بين ادعاء الأصالة وإنشاء حداثة عربية تختلف عن الحداثة الغربية في مقولاتها ومصطلحها النقدي، في الوقت الذي تكشف فيه محاولاتهم وكتاباتهم بصفة دائمة عن تأثرهم الصريح والمباشر بالحداثة الغربية، وهنا تتجلى أزمة الحداثيين العرب.

يوضح عبد العزيز حمودة أسباب الأزمة فيقول: «كنا نتصرف على أساس أن الأزمة التي تواجهنا ترجع إلى فشل في نقل المصطلح النقدي إلى العربية من ناحية، أو فشل في نقل دلالاته من جانب المتلقي من ناحية أخرى، دون أن نعترف بشجاعة بأن الأزمة ليست أزمة مصطلح، بل أزمة واقعين ثقافيين وحضارتين مختلفتين... فإن أزمة الحداثة العربية ليست أزمة مصطلح نقدي نتوه في تحديد دلالاته، ولكنها أزمة فكر بالدرجة الأولى، أزمة ثقافة قبل أي شيء آخر».[1]

ويتقاطع معه شكري عياد في تأكيده لهذه الأزمة حيث يقول: «إن الحداثي العربي له حضوران يحرص عليهما قدر استطاعته: حضوره في مجتمعه العربي وحضور أمام مراكز الثقافة الغربية، ويوضح أكثر فيقول: الحضور في الثقافة العربية واضح، فهو يحارب التخلف والجمود في النظم والمؤسسات، كما يحطم التقاليد اللغوية والفنية،

[1]– المرايا المحدبة، ص: 33، 34.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

وحضوره في الثقافة الغربية غير بارز؛ لأن هذه الثقافة تمر منذ فترة غير قصيرة بعصر من التجريب في كل ميادين الفكر والأدب... فالحداثي العربي في محيطه العربي يقف ضد الجمود والتخلف، وفي حضوره الغربي يقف ضد الثقافة التجارية الرأسمالية».[1]

فالحداثي العربي يعاني غربة فكرية وثقافية –إن صح التعبير– عند تبنيه الثقافة الغربية المتمثلة في استعارته للمصطلح الغربي الذي يكتسب شرعيته ودلالته داخل الإطار الفكري للفلسفة الغربية، «إننا نستعير المصطلح النقدي ونخرجه من دائرة دلالته داخل القيم المعرفية، فيجيء غريبا ويبقى غريبا ويذهب غريبا، النتيجة الطبيعية هي فوضى النقد التي خلفها الحداثيون العرب».[2]

ويؤكد عبد العزيز حمودة هذا القول في موضع آخر قائلا : «المصطلح النقدي الحداثي إفراز للفلسفة الغربية خلال ثلاثمائة عام من تطورها، وعلى الرغم من ذلك فإن الحداثة في قلب التربة الثقافية الغربية خلقت أعداءها والرافضين لها، و لم يكن المصطلح النقدي الجديد أوفر حظا، فهو يمثل أزمة متجددة، لا تفقد قوة دفعها في لحظة من اللحظات، فما بالنا بالنسخة العربية التي نقلت النسخة الأخيرة للفكر الغربي دون أن تكون له مقدماته المنطقية، واستخدمت مصطلحا نقديا يجمع بين غرابة النحت وغربة النقل إلى لغة جديدة».[3]

ونجد شكري عياد يلخص لنا التّمزق الدائم الذي يعيشه الحداثي العربي قائلا: «فالكاتب منتمٍ بفكره أو الأنا العليا إلى العالم الغربي الحديث، بينما هو منتمٍ بعلاقاته الاجتماعية (أي بالأنا) إلى المجتمع العربي، وبناءً على ذلك فلن يكون أمامه خيار حين

[1] – محمد شكري عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، ص: 18.
[2] – المرايا المحدبة، ص: 37.
[3] – المصدر نفسه، ص: 10، 11.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

يكتب، إلا أن يكتب لقارئ على شاكلته، قارئ عربي ينتمي بفكره إلى العالم الغربي الحديث».[1]

فالحداثة الغربية نتاج واقع يختلف عن الحداثة العربية، وهذا ما اعترف به الحداثيون أنفسهم، نذكر على سبيل المثال: يوسف الخال، الذي أبرز ازدواجية الانتماء عند الحداثي العربي عندما قال: «أما أن يصبح العالم الحديث عالمنا؛ أي لا يقوم بيننا وبينه حاجز، فلا يعني أننا أصبحنا تماما فيه؛ أي أننا تبنينا جميع معطياته ومفاهيمه – الصالح منها والطالح– في حياتنا، فلو كان الأمر كذلك لما كانت القضية المصيرية التي تجابه العرب اليوم... وهي: كيف ننشئ مجتمعا حديثا في عالم حديث؟

هذا التناقض بين كوننا شكلا في العالم الحديث وكوننا جوهرا في خارجه يضطرنا إلى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث، ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم، ففي التعبير عن معاناتنا تلك نعرض أنفسنا لإنتاج أدب يجده القارئ العربي مستوردا غربيا».[2]

نذكر هنا أن الدعوة لحداثة عربية بدأت في لبنان في وقت مبكر جدا، من الخمسينيات حتى السبعينات دون كثير من الصخب الذي أثاره الحداثيون فيما بعد في بعض الدول العربية حتى يلفتوا النظر إلى أنفسهم، وهو ما نجحوا فيه تماما، وهو ما يذهب إليه أدونيس حينما يقول: «إننا أخطأنا منذ البداية في فهم حداثة الغرب، لم ننظر إليها في ارتباطها العضويّ بالحضارة الغربية بأسسها العقلانية خصوصا، وإنما نظرنا إليها بوصفها أبنية وتشكيلات لغويّة. رأينا تجليات الحداثة في ميدان الفنون والآداب، دون أن نرى الأسس النظرية والمبادئ العقليّة الكامنة وراءها. ومن هنا غابت عنا دلالتها العميقة

[1] – محمد شكري عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، ص: 13.

[2] – يوسف الخال: الحداثة في الشعر، ص: 5، 6.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

في الكتابة وفي الحياة على السواء».[1]

لقد أدى نقل الحداثة إلى واقعنا العربي إلى ظهور فريقين متعارضين أحدهما يناصر الحداثة الغربية ويرى فيها المنقذ من التخلف الحضاري، والآخر وقف معارضا ومقاوما لهذه الحداثة التي يراها تهدّد كيانه وتراثه وهويته، «لكن الصدمة الحقيقية لحداثتنا تمثلت في انشقاق الوعي العربي بين حضارة تقدمية تنادي بالانفتاح، وبين سلفية ماضيّة تدعو إلى التمسك بالأصول».[2]

إن هذا الفريق الذي يعارض الحداثة ويتمسّك بالأصول يصفه بعض الكتّاب العرب وصفا يدلّ على مدى اتساع الشرخ بين الطرفين، يقول سامي سويدان متهما هذا الفريق بتعطيل الحداثة، كونه معاديا لكل ما هو حديث: «بينما تجد المجتمعات العربية اليوم نفسها وقد غلبت السلفية والأصولية على أوضاعها، في أزمة حداثة معطّلة، فالقوى السلفية المتصدية للتغير قوى محافظة وأهدافها ارتدادية رجعية لا تقدمية تطورية، وهي معادية للحداثة وللثقافة إجمالا بقدر ما تأخذ بنظرة وحيدة غيبية وبدائية إلى الإنسان والعالم، وتمارس الإرهاب لفرضها».[3]

ومن جهة أخرى نجد الفريق الذي يتبنى الحداثة الغربية يتعرض أيضا لهجوم شرس ونقد لاذع، لا سيما من طرف النقاد الإسلاميين كالدكتور عدنان النحوي، هذا الأخير يرى أن الحداثة الغربية التي يروّج لها بعض النقاد العرب لها انعكاسات خطيرة «تظهر في الفكر والأدب والسلوك، في ثورة هائجة تحاول هدم الماضي بصورة مستمرة متتالية،

[1] – أدونيس: النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط2، 2010، ص: 94، 95.

[2] – خيرة حمر العين: جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، ص: 39.

[3] ـ سامي سويدان: جسور الحداثة المعلقة، دار الآداب، بيروت– بيروت، ط1، 1997م، ص: 9.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

حتى لا يبقى حسب ظن رجالها شيء ثابت في الحياة، في هجوم جنوني على الدين واللغة، وعلى التراث كله بما فيه من خير وشر، وثورة على الحياة وعلى سنن الله في الكون، بين قلق الشك والريبة، وفجور الكبر والغرور، إنها تمثل انحطاط الإنسان إلى أسفل سافلين، بما كسبت يداه».[1]

وبالرجوع إلى سامي سويدان نجد أيضا وهب أحمد رومية الذي اتهم بعض النقاد المعاصرين بالإرهاب حينما سلّطوا على رقاب الناس سيفَ حداثة لم تتضح معالمها بعد، بل يؤكد فشل الحداثة العربية في نموذجها الغربي فيقول: «لقد أخفقت الحداثة العربية في أن تكون عربية حقّا حين بهرتها الحداثة الغربية، وعجزت عن محاورتها، فاستسلمت لها وتبنت مفاهيمها، وجاهدت جهادا محموما للالتحاق بها، وعلت أصوات كثيرة تتحدث عن نقد معاصر، لا نقد عربي معاصر».[2]

إن أنصار الحداثة الغربية في الأدب العربي يسعون إلى نشرها وإرساء قيمها، وغايتهم ترقية هذا الأدب وجعله يواكب المستوى الذي وصل إليه الأدب الغربي، ولم ينتبهوا إلى خصوصية البيئة العربية وإلى أهمية التراث الأدبي الذي أنتجه، لقد أصبح مصطلح الحداثة في نظرهم مرادفا للتحضر والتقدم والتطور، يقول عبد العزيز حمودة في هذا الصدد: «فالإنسان في هذه الأيام واحد فقط من اثنين، بالنسبة للحداثيين العرب: إما حداثي أو رجعي جاهل».[3]

[1] ــ عدنان علي رضا النحوي: تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض–السعودية، ط1، 1992م، ص: 136.

[2] ــ وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب–الكويت، دط، 1996، ص: 18.

[3] ــ المرايا المحدبة، ص: 18.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

فهذه النظرة الأحادية والاستعلائية للحداثيين جعلت منهم تلك النخبة الغربية في مجتمعها العربي والمعزولة عن أدب الأغلبية من أبنائه والرافضة لتراثه، ولقد أدى ارتماؤهم في حضن الثقافة الغربية إلى انبهارهم بالعقل الغربي وإنجازاته، في مقابل ذلك احتقارهم للعقل العربي، هذه الثنائية تبناها كمال أبو ديب وسار على نهجها، يقول حمودة فيه: «لم يتردد في الجهر بتبنيه لطرفي الثنائية، فينطق فيما يكتب منبهرا بالعقل الغربي ومحقرا في شأن العقل العربي»، وكذا اتهامهم اللغة العربية بالعجز والقصور، «وهكذا انتقل تحقير العقل العربي إلى تحقير اللغة العربية واتهامها بالقصور».[1]

والنتيجة التي يمكن أن نخرج بها هو أن الحداثي العربي دخل في نفق مظلم ولم يستطع الخروج منه، وذلك لعجزه عن تحقيق الحداثة العربية؛ فلا أنصار الحداثة الغربية استطاعوا أن يؤسسوا لحداثة عربية ترتبط بالمجتمع وبتراثه، ولا أعداء الحداثة الغربية تمكّنوا من التحرر من قيود التقليد، ومن إنشاء أدب يواكب روح العصر ويستفيد من ثقافة الآخر في ضوء معطيات جديدة لا يمكن تجاوزها. وأن رفض الحداثة الغربية جملة وتفصيلا لا يقبل به إلا جاهل، ولهذا لا بد من إيجاد مخرج أو بديل ثالث كما يسميه عبد العزيز حمودة، والذي لا يتحقق إلا إذا تحقق الفهم الكامل للحداثة الغربية واختيار ما يغني الفكر العربي لتأسيس حداثة عربية ناجحة.

5– غياب المرجعية العربية للحداثة:

بالرغم من الصيحات التي نادى بها الحداثيون العرب في البداية بتأسيس حداثة عربية ذات مرجعية تراثية، إلا أنّهم أخفقوا في ذلك، والسّبب راجع إلى الانفتاح على الآخر والانبهار به، مع إهمال الخلفية المعرفية العربية، وهذا ما يؤكده أدونيس عندما يتحدث عن مصدر الحداثة في العالم العربي بقوله: «فإن الغرب اليوم يقيم في عمق

[1] ـ المرايا المقعرة، ص: 45، 46.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

أعماقنا، فجميع ما نتداوله اليوم فكرياً وحياتياً يجيئنا من الغرب، أما فيما يتصل بالناحية الحياتية فليس عندنا ما نُحَسِّنُ به حياتنا إلا ما نأخذه عن الغرب، وكما أننا نعيش بوسائل ابتكرها الغرب، فإننا نفكر بلغة الغرب، نظريات ومفهومات ومناهج تفكير ومذاهب أدبية..».[1]

فبالرغم من تأصيل وعراقة النقد الأدبي في التراث العربي أصبح الناقد العربي مسكوت بهاجس الحداثة الغربية، بمعنى الاتصال بالغرب واللحاق... فتبنى الحلول الجاهزة، واستمرأ التحايل وتزييف الحقائق من أجل وصف الحداثة العربية بالخصوصية الثقافية ومنحها شرعية تاريخية تبرر وجودها، دون مراعاة للشروط الاجتماعية والاقتصادية التي أفرزت هذه الحداثة في الغرب، والتي ارتبطت بالثورة الصناعية الإمبريالية الاستعمارية، وإغفال هذه العوامل وتبني النموذج الحداثي الغربي دون تمييز يمهد الطريق أمام هيمنة أصحابه الأصليين وسيطرتهم على مفاتيح التفكير في العالم العربي.[2]

فالعالم الغربي أصبح هو النموذج الأمثل لعالم الحداثة العربية المأمول منه كما يقول محمد عابد الجابري: «تستوحي أطروحتها، وتطلب المصداقية لخطابها».[3]

إنّ اختلاف الواقع العربي حضاريا بأبعاده التاريخية والسياسية والاقتصادية عن الواقع الحضاري الغربي والذي أنتج الحداثة بنظرياتها النقدية وقيمها الأدبية المأزومة في

[1] ــ أدونيس: الثابت والمتحول- بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت- لبنان، ط4، 1987م، ص: 37.

[2] ــ ينظر: لطفي فكري محمد الجودي، نقد خطاب الحداثة، ص: 95.

[3] ــ محمد عابد الجابري: التراث والحداثة (دراسات ومناقشات)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، 1991م، ص: 8.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الغرب ذاته، يجعل استيراد قيمها المعرفية من قبل واقعنا العربي ضربا من العبث، يقول عبد العزيز حمودة في ذلك: «إن اختلاف الواقع العربي، وهو واقع تحدده أبعاد تاريخية واجتماعية واقتصادية محددة، عن واقع العالم الغربي الذي أفرز الحداثة، يجعل نقل الحداثة الغربية بقيمها المعرفية الجديدة والمصطلح النقدي الذي تولد عنها إلى واقعنا العربي ضربا من العبث في الدرجة الأولى».[1]

فإذا كانت الحداثة الغربية –وهي النسخة الأصلية التي نقل عنها العرب حداثتهم– تعبر عن واقع اجتماعي معين، وتتفاعل مع طبيعة السياقات التاريخية الخاصة التي نشأت في محيطها، فإن الحداثة العربية –وهي النسخة المقلدة– تعاني من أزمة انفصام وتناقض حقيقي، ذلك أن الحداثيين العرب تعاملوا مع المنجز الحداثي الغربي بوصفه لبنة مستقلة عن سياقاته التاريخية والاجتماعية، ومنفصلة عن منظوماته المعرفية، بمعنى أننا تبنينا فيها النتائج النهائية دون أن نعيش مقدماته.[2]

وفي ختام هذه الجزئية يمكننا القول إن الحداثة العربية لم تختلف عن الحداثة الغربية، بل هي نسخة عنها وامتداد لها، وقد فشل كل من الحداثيين العرب في تأسيس حداثة عربية، على الرغم من محاولاتهم المستميتة، وهذا ما وقف عليه عبد العزيز حمودة عندما قدم لأهم نماذج الحداثيين العرب، حيث كان هدفهم تحقيق نهضة فكرية عربية، وتحقيق الاستنارة الثقافية، إلا أنّهم فشلوا في تحقيق هدفين أساسين، وهما:

أ– فشلهم في تحقيق حداثة عربية حقيقية، ورغم تأكيداتهم بأنهم لا ينقلون عن الحداثة الغربية، فإن الواقع يُؤكد نقيض ذلك، وما دراساتهم للبنيوية إلا شاهد على ذلك، وفي هذه الوضعية يستشهد عبد العزيز حمودة بحالة الناقد السوري كمال أبو ديب

[1] – المرايا المحدبة، ص: 37، 38.

[2] – المرايا المقعرة، ص: 56.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الذي ردد في أكثر من موضع في تحليليه للشعر الجاهلي أنه يقود تيارا معاكساً لهجمة التغريب والنقل عن الآخرين، وأنه يبدأ الخطوات الأولى في تأسيس بنيوية عربية تغري الباحثين العرب بإقامة ألسنية عربية نابعة من شروط الكتابات الإبداعية العربية، إلا أن الناظر في هذه المحاولة يجدها لا تخرج عن كونها أقوالا تغلب عليها الحماسة والمبالغة ورغبة الفعل دون كثير ابتعاد عن التحليل الغربي، يقول حمودة: «لم أتوقف كثيرا عند نغمة الادعاء المبالغ فيه من جانب كمال أبو ديب بقوله إنه بدراساته حول الشعر العربي يطور منهجا نقدياً لا يتجاوز فقط ما أنجزه الفرنسيون الأوربيون على إطلاقهم، بل إنه تجاوزهم كثيرا جدا، لم أكترث كثيرا لقوله بأن منهجه البنيوي أو النقدي الجديد لا يتعامل مع النصوص الأدبية بالطريقة التي يحلل بها الناقد والفيلسوف الفرنسي رولان بارت نصا، متناسيا عن عمد أن رولان بارت لم يكن أبدا البنيوي الوحيد الذي يمكن أن يكون أبو ديب قد تأثر به، وأنه في مواطن كثيرة من كتابه يتحدث عن تأثره بمهج بنيوي آخر، ألا وهو عالم الموروثات الشعبية الروسي فلاديمير بروب على وجه التحديد...».[1]

ب– فشل النقاد الحداثيين العرب مرة أخرى وخاصة في تجلياتهم البنيوية والتفكيكية في نحت مصطلح نقدي جديد خاص بهم تمتد جذوره في واقعنا الثقافي العربي، «بالرغم من حماس الحداثي العربي المحمود عموما، المتبني للرؤية الغربية لتحقيق نهضة فكرية عربية، وسعيه الدؤوب لتحقيق استنارة ثقافية، فشل في إنشاء حداثة عربية حقيقية، بل فشل في نحت مصطلح نقدي جديد خاص به تمتد جذوره في واقعنا الثقافي العربي، فضلا عن فشله في تنقية المصطلح الوافد من عوالقه الثقافية الغربية، لارتباطه بمناخه الفكري والاجتماعي والسياسي الذي أنتجه، والذي يمثل الخلفية المرجعية الكبرى

[1] – المرايا المحدبة، ص: 17، 18.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الدائمة له، التي تمنحه شرعية الوجود».[1]

إن الغاية التي أرادها عبد العزيز حمودة من خلال عرضه لأفكار الحداثيين العرب إنما هي تصحيح مسار النقد العربي المعاصر وإخراجه من الأزمة التي كان يتخبط فيها جراء تبنيه المشاريع الغربية، وذلك من أجل تأسيس نظرية أدبية تستند إلى التراث العربي.

6– نشدان البديل الحداثي:

لا ينازع أحد في أن الحداثة ضرورة لا غنى عنها للمجتمع العربي الإسلامي، وهو من أكثر أمم الأرض حاجة إليها، لتخلّصه من التخلّف والجهل والتبعية والشتات.

ولكن الحداثة الفكرية التي هيمنت على هذا المجتمع وبسطت نفوذها فيه، وكان صوتها جهيرا يكاد يطغى على كلّ صوت عداه، هي الحداثة الهجينة المستوردة التي تركز بحثنا حولها، ولذلك أخفقت هذه الحداثة إخفاقا ذريعا في إرضاء الذائقة العربية، وفي إرواء عطشها للتجديد الصادق الأصيل، وذلك لكثرة الغث في خطابها الأدبي والثقافي. بل إن هذا الخطاب كما يقول عبد القادر القط: «قد أضرّ بالحياة الثقافية العربية، وأفرز فيها سلوكيات غير جادة..».[2]

الأمر الذي دفع بعبد العزيز حمودة إلى البحث عن بديل حداثي، وبدعوته هذه نجده يتقاطع كثيرا مع طه عبد الرحمن الذي حاول أن يؤسس للحداثة الراشدة أو الحداثة الإسلامية، والتي من شروطها مبدأ الرشد الحداثي –أي ترشيد الفكر والأدب– بمفهوم فلسفي وإسلامي يؤهل للانتقال من الحداثة المقلدة إلى الحداثة المبدعة، وراح من خلال

[1] – لطفي فكري محمد الجودي: نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، ص: 116.

[2] ـ مجلة الرافد الإمارتية، العدد السادس، ديسمبر 1977م، ص: 51.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

التطبيق الإسلامي لمبدأ النقد الحداثي يستشرف البدائل الفكرية والإبداعية والروحية[1]، واتجه آخرون إلى وصفها بـــ حداثة الأصالة *، حداثة الجذور، حداثة الغياب أو التغييب، الحداثة الغائبة، وهذه الأخيرة تمثل «الحداثة الأصيلة الراشدة، حداثة العروبة والإسلام، موجودة إذن، بل موجودة على نحو غير يسير، ولكنها غائبة أو مغيّبة؛ لأن أصحابها لا يحتلون مواقع الشهرة، ومراكز الصدارة، ومنابر الإعلام القوية المؤثرة كما هو حال رموز الحداثة الأولى».[2]

فعبد العزيز حمودة يحاول أن يرتكز على التراث لتأسيس حداثة عربية، وذلك لن يتحقق إلا من خلال إدراكنا للثابت والمتحول من عناصر ثقافتنا إدراكا عميقا يبصّرنا مواقع أقدامنا، ويرشدنا إلى ما يمكن استثماره من حضارات الأمم، ويعصمنا من الذوبان والتماهي في الآخر. ويؤكد المعنى محمود إبراهيم قائلا: «ينبغي أن تبنى الحداثة على أساس من معرفة الأصالة، ولا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لإنسان أن يستحدث شيئا أو يضيف سابقا إلى لاحق دون معرفة هذا السياق، وبالتالي معرفة ما ينبغي أن يضاف إليه».[3]

والحداثة التي دعا إليها عبد العزيز حمودة لا تلغي الآخر، بل تحاول أن تتعامل معه

[1] ــ ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة– مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ط1، 2006م، ص: 35، 54، 73.

* ويقول حسن الأمراني في هذا الصدد: «الحداثة كما تأكد عبر مراحل التاريخ– لا تقوم إلاّ على الأصالة، وإن ما لم يكن أصيلا، لم ولن يكن حديثا». مجلة المشكاة المغربية، العدد 15، 16/ 1992م، ص: 113.

[2] ــ جمال شحيد/ وليد قصاب: خطاب الحداثة في الأدب– الأصول والمرجعية، ص: 316، 317.

[3] ــ المرجع نفسه، ص: 322.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

بحذر ووعي؛ لأن هناك اختلافا في المذاهب والبيئة الفكرية والعقيدية، وهذا الأمر تجسده الحداثة الراشدة باعتبارها «لا تلغي الآخر ولا تتنكر له، ولا تغلّق أبوابها دونه، بل هي منفتحة عليه مقتبسة منه، مواكبة أحدث ما توصل إليه، ولكنها لا تفعل ذلك كله مغلقة العينيين، مقلدة تقليدا أعمى، فاقدة للبصر والرشاد، معتقدة أن كلّ ما يأتي منه خير نافع، وأنها لن تكون مثله إلا إذا كانت صورة منسوخة عنه».[1]

فعلى الفرد أن يتعامل مع الفكر الغربي وهو مدرك تمام الإدراك بمنطلقاته وأهدافه، ومقوماته الحضارية والفكرية، وهذا كله لكي لا نقع في الشرخ والتيه يقول عبد المعطي حجازي في هذا الصدد: «من المؤكد أن أي مثقف غربي سوف يصدم صدمة عظيمة حين يقدر له أن يشهد مجلسا من مجالسنا، لأنه سوف يفاجأ أولا بأننا نتحدث عن ثقافته هو، لا عن ثقافتنا نحن، وسوف يفاجأ فوق ذلك بأننا نتحدث عن ثقافته بثقة لا يعهدها في نفسه أو حتى في أساتذته المختصين». ثم يقول: «إذا كانت الحداثة الغربية نفسها مجموعة من الحداثات فالأقرب إلى المنطق أن تكون للمصريين أو العرب عامة حداثتهم الخاصة، لكن هذا كله لا يمكن خارج الحداثة القومية».[2]

ويقول محمد العروسي جامعا بين التراث والحداثة: «في تراثنا أشياء إيجابية علينا أن نحتفظ بها، وأن نعتز بها، وأيضا في الحداثة أشياء قد تنفعنا وأشياء قد لا تتلاقى وواقعنا، فعلينا أن نجمع منهما ما هو أفيد، وما هو أحسن، والاختيار صعب؛ لأن الذي يختار لن يوفق ما لم يكن يعمل عقله وفكره».[3]

[1] ــ المرجع نفسه، ص: 321.

[2] ــ المرجع نفسه، ص: 321.

[3] ــ جمال شحيد/ وليد قصاب: خطاب الحداثة في الأدب– الأصول والمرجعية، ص: 323.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

7– البديل الحداثي والمرايا المقعرة:

صاغ عبد العزيز حمودة كتابه (المرايا المقعرة) كبديل مُدافع عن التراث، يحاول الإجابة فيه عن أسئلة الهوية والوجود العربي، وإيجاد نهاية لثقافة الشرخ: من أنا؟ من نحن؟ في محاولة للإجابة عن السؤال الجوهري، ربما يستحسن أن نبدأ من نقطة يتفق عليها الجميع، وهي أن الشرخ الذي يعيشه المثقف العربي أو الفصام الذي يهدده كل يوم، يرجع إلى غياب المشروع الثقافي القومي أو العربي.[1]

كان ذلك طرحا جديدا أصدره عبد العزيز حمودة بديلا مدافعا عن سوء النية التي اتهمه بها الرافضين لكتابه (المرايا المحدبة)، يقول في ذلك: «وكنت حريصا على تأكيد أن رفضي لإفرازات الحداثة الغربية ليس أكثر من ممارسة حق الاختلاف، ولا يعني بالضرورة صحة مقولاتي أو خطأ مقولات الآخرين. بل وصل الأمر إلى اتهام مؤلف (المرايا المحدبة) بسوء النية»، ويضيف قائلا: «وكانت تلك في الواقع أول مرة أسمع فيها أو أقرأ فيها وصف الاختلاف في الرأي بسوء النية، وكأنّ على الناقد قبل أن يختلف أن يقدم للآخرين شهادة حسن النية قبل أن يمارس ذلك الحق! لم أقرأ مثلا أن ناقدا حداثيا أو بعد حداثي غربيا اتهم جون إليس بسوء النية، حينما نسف في قسوة نقدية بالغة الحدة أسس التفكيك والتلقي في كتابه (نقد التفكيك/Against Deconstruction)».[2]

ويضيف مُدافعا عن كتابه (المرايا المحدبة) ومؤكدا التبعية التي تشهدها الحداثة العربية قائلا: «كان موقفي المبدئي من المؤلف السابق أن الحداثيين في بلاد النشأة وفي العالم العربي على السواء، وقفوا أمام مرايا محدبة زادت من أحجامهم وضخمتها، وحينما طالت وقفتهم أمام تلك المرايا صدّقوا في نهاية الأمر أن إنجازاتهم النقدية بهذا

[1] ـ المرايا المقعرة، ص: 21.

[2] ـ المرجع نفسه، ص: 8.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الحجم المتضخم، وعلى غير الحقيقة. وبعيدا عن الغضب الذي أثارته الصورة عند بعض الحداثيين العرب فإن المقولة في جوهرها لم تكن جديدة، أو تهمة ابتدعها مؤلف المرايا المحدبة آنذاك. فالقول بأن البنيويين والتفكيكين بالغوا في تقدير حجم إنجازاتهم قول يتفق عليه كل من نقضوا الاتجاهين.[1]

لكن أخطر ما وشت به تلك الدراسة، ولكن يجب أن أكون أكثر جرأة وأقل تأدبا، هو أن النقل عن الحداثة الغربية يفتح الطريق أمام التبعية الثقافية ثم يكرسها، ثم إننا نرتكب إثما لا يغتفر حينما ننقل المصطلح النقدي الغربي، وهو مصطلح فلسفي بالدرجة الأولى، بكل عوالقه المعرفية إلى ثقافة مختلفة هي الثقافة العربية دون إدراك للاختلاف».[2]

يتحدث حمودة عن كيفية تفكيره في أسس البديل فيقول: «في ظل حصار الأسئلة التي واجهتني في الشهور التالية لصدور (المرايا المحدبة) بدأت فعلا في التفكير في البديل الذي طالبني الجميع بضرورة البحث عنه، وكان من الضروري أن يكون عربيا، كانت المقدمات التي اعتمدت عليها في تلك الدراسة تشير جميعا إلى اتجاه واحد: البديل العربي القومي»[3]، ويضيف قائلا: «وبدأت عملية البحث عن بديل في التراث البلاغي العربي، وقضيت عامين كاملين أقرأ بنهم غريب أعمال البلاغيين العرب في العصر الذهبي، ابتداء بالجاحظ وانتهاء بحازم القرطاجني».[4]

ومن هنا نجد عبد العزيز حمودة يعترف ببعض التجارب النقدية التي أثرت النقد المعاصر، والتي غضّ الطرف عنها في حديثه عن الحداثة العربية في (المرايا المحدبة)، يقول

[1] ــ المرجع نفسه، ص: 9.
[2] ــ المرايا المقعرة، ص: 9.
[3] ــ المرجع نفسه، ص: 10.
[4] ــ المرجع نفسه، ص: 10.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

مثلا: «ماذا أستطيع أن أضيف إلى الدراسات المتميزة للتراث التي قام بها جيل من النقاد الكبار مثل عز الدين إسماعيل وشكري عياد ومحمد عابد الجابري وجابر عصفور وآخرون غيرهم؟».[1]

وكون حمودة مثقفا ثقافة إنجليزية وجد نفسه يعيش الشرخ على مستوى خلفيته الفكرية التي تؤطره، كمثقف وناقد، يقول: «لا أخفي على القارئ أنني وجدت نفسي أعيش مفارقة غريبة وخاصة، لقد وجدت نفسي أنا الذي بدأت حياتي العلمية داخل بيت الثقافة الغربية وأكملت دراستي العليا في الأدبين الإنجليزي والأمريكي، وجدت نفسي في هذه المرحلة أعود إلى حظيرة الفكر العربي القديم، في حركة معاكسة تماما لحركة بعض كبار الحداثيين العرب، أقول ذلك راجيا ألا يفسر على أنه تعظيم من شأن نفسي أو تقليل من شأن الآخرين الذين كان بعضهم أساتذة لي بأكثر من معنى، وقدموا للثقافة العربية خدمات لا يمكن لأي سوء نية أن يقلل من شأنها. لكنني أبدا لم أشعر بالدونية، وإن كنت قد شعرت برهبة كبيرة. ثم أدركت بعد بداية قراءة التراث البلاغي العربي أن بدايتي مع الآداب الغربية ربما تساعدني في تقديم قراءة أو رؤية جديدة لذلك التراث».[2]

فقراءة حمودة للتراث العربي وجعله منطلقا في تأسيسه للبديل بنية وصل ما انقطع؛ أي وصل الماضي بالحاضر، وذلك من أجل وضع نهاية لثقافة الشرخ، والخروج ببديل حداثي عربي تراثي.

ويلخص محمد نبيل الصغير أهم المسوغات التي دفعت حمودة إلى طرح البديل

[1] ـ المرجع نفسه، ص: 10.
[2] ـ المرجع نفسه، ص: 10.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

الحداثي، وهي كالآتي[1]:

– الرّد على النقود التي وُجهت لكتابه (المرايا المحدبة)، لذلك يدحض فكرة القطيعة المعرفية وثقافة الشرخ.

– الالتفات إلى بعض النقاد والمفكرين كشكري عياد والجابري، الذين لم يكن لهم أثر يذكر حين ناقش الحداثة العربية ومنتقديها.

– تحديد موقفه المعرفي وخلفيته الفكرية التي يستند عليها في المطالبة ببديل عربي قومي.

كانت تلك أطروحات عبد العزيز حمودة، فماذا عنا نحن؟ ونحن ننتقل من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر تحكمنا فيه التبعية، فمتى نستقل بفكرنا وواقعنا إذا كنا لا نملك الإرادة المطلقة في صنع حداثة عربية خاصة وفقا لمنطق المتغيرات الجديدة، ووفقا لمنطلق المنتجات الفكرية الموروثة.

الخاتمـــة:

يعد مُصنّف (المرايا المحدبة) من المصنّفات الهامّة والقيّمة في مجال النقد، أو قل نقد النقد، وتكمن قيمته فيما يأتي:

– اختيار العنوان لم يكن اعتباطيا أو محاكاة أو مسايرة.

– أهمية صورة المرآة في الدراسات النقدية المعاصرة (شفيق حبيب: في مرايا النقد. جابر عصفور: المرايا المتجاورة...).

– مناسبة العنوان لقضية الكتاب المحورية. لماذا جمع المرايا؟ هل هي إحالة إلى تعدد أنماط واتجاهات الحداثة (منظرون، نقاد، نظريات، مناهج، مصطلحات...).

– التفرغ لكتابته باستغراقه أربع سنوات في قراءة معمقة للحداثة.

[1] ـ نبيل محمد الصغير، تشريح المرايا في نقد مشروع عبد العزيز حمودة، ص: 167.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

– تحقيق العنوان لمقاصد الكتاب واتجاهه في نقد النقد، وهو مجال مهم وجديد.

– تبسيط المعلومات، لتقريب الحداثة إلى المتلقي؛ لأن دعاة الحداثة تشبثوا بما هو براق، جذاب، متعال...

– الكشف عن حقائقها بعد دعوات الحداثيين العرب الذين بالغوا في المراوغة المقصودة والغموض المتعمد.

– توضيح المفاهيم والمصطلحات النقدية الحداثية، بفك طلاسمها وشفراتها.

– الخروج من حالة الشعور بالرهبة والخشية في التعامل مع الفكر الجديد، فهو لم يكن من نخبة الحداثة.

– التفرغ لفهم الحداثة وقراءتها من الداخل، دون الانضمام إلى النخبة؛ أي المعرفة بها دون الانبهار والقدرة على نقدها.

– الابتعاد عن منهج البحث الأكاديمي الجاف وشرعيته الأساسية في مخاطبة القارئ المتخصص، حيث أراد أن يكون له خطابٌ أكثرُ انفتاحا على القراءة.

– التخفيف من غلواء الجانب اللغوي والفلسفي الطاغي على خطاب الحداثة، رغم أنه لم ينف وقوعه أحيانا في الجفاف والتقعر؛ لأن طبيعة الموضوع تؤدي إلى ذلك، رغم محاولات الابتعاد عن لغة الخطاب الحداثي، إلا أنها لا تواجه إلا باللغة نفسها.

قائمة المصادر والمراجـــع:

المصادر:

– عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة– من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

المراجـــع:

1- أدونيس: الثابت والمتحول- بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت- لبنان، ط4، 1987.

2- ـــــــ: الثابت والمتحول- صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، دار العودة، بيروت- لبنان، ط4، 1993.

3- ـــــ: النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط2، 2010.

4- ـــــ: فاتحة لنهايات القرن- بيانات من ثقافة عربية جديدة، دار العودة للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط2، 2010.

5- ألان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة- مصر، دط، 1997.

6- إلياس خوري: الذاكرة المفقودة- دراسات نقدية، دار الآداب، بيروت- لبنان، ط2، 1990.

7- جمال شحيد/ وليد قصاب: خطاب الحداثة في الأدب- الأصول والمرجعية، دار الفكر، دمشق- سورية، ط1، 2005.

8- طوني بينيت، ولورانس غروسبيرغ، وميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة- معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط1، 2010.

9- لطفي فكري محمد الجودي: نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط1، 2011.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

10– محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصر– نموذج هبرماس، إفريقيا الشعب، الدار البيضاء– المغرب، ط2، 1998.

11– يوسف الخال: الحداثة في الشعر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط1، 1978.

12– الفيروز آبادي: القاموس المحيط، الجزء الأول، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت– لبنان، 1997.

13– جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 25، ع 03، مارس 1997.

14– خيرة حمر العين: جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق– سوريا، دط، 1996.

15– سامي خشبة: مصطلحات فكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة– مصر، دط، 1997.

16– سامي سويدان: جسور الحداثة المعلقة، دار الآداب، بيروت– بيروت، ط1، 1997.

17– شكري محمد عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1993.

18– طه عبد الرحمن: روح الحداثة– مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ط1، 2006.

19– عبد الرحمن عبد الحميد علي: النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد، دار الكتاب الحديث، القاهرة– مصر، دط، 2005.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:01 السنة:2021 الصفحة:918–954 تاريخ النشر:27–06–2021

21– عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة–نحو نظرية عربية نقدية، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001.

22– عدنان علي رضا النحوي: تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض–السعودية، ط1، 1992.

23– عزّ الدين الخطابي: أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009.

24– لطفي فكري محمد الجودي: نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ط1، 2011.

25– مجلة المشكاة المغربية، العدد: 15، 16/ 1992.

26– مجلة الرافد الإمارتية، العدد السادس، ديسمبر 1977.

27– مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة– مصر، د.ط، 1983، مادة تجديد.

28– محمد عابد الجابري: التراث والحداثة (دراسات ومناقشات)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت– لبنان، ط1، 1991.

29– وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت، دط، 1996.